

وَقَالَتْ: مَا بِكَ يَا هِنْدُ؟! أَرَأَيْكَ كَتَيْبَةً حَزِينَةً (1) قُلْتُ: غَدًا سَتُنْظِمُ مَدْرَسَتَنَا رِحْلَةً لِصَفِّ السَّادِسِ. قَالَتْ: إِنِّي أَرَى هَذَا الْأَمْرَ مَدْعَاةً لِلْفَرَحِ وَلَيْسَ لِلْحُزْنِ. قُلْتُ: إِنَّ الرِّحْلَةَ سَتَكُونُ إِلَى مَعْرِضِ الْكِتَابِ، وَأَنَا كُنْتُ أَتَمْنَى أَنْ تَكُونَ لِاحْدَى الْمَدَنِ التَّرْفِيهِيةِ، فَأَيُّ مُنْعَةٍ سَتَكُونُ فِي مَكَانٍ تَصْنُطُ فِيهِ الْكُتُبُ، هَذَا الْمَكَانُ؟! قَالَتْ: أَمَّا أَنَا يَا بِنْتِي فَأَرَى أَنَّهَا سَتَكُونُ رِحْلَةً جَمِيلَةً وَتَجْرِبَةً مَثِيرَةً تَسْتَمْتَعُونَ فِيهَا جَمِيعًا، إِيَّاكَ أَنْ تَحْكُمِي عَلَى شَيْءٍ قَبْلَ أَنْ تُجَرِّبِيهِ! فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَّالِيِ، كُنَّا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ رِحْلَةٍ إِلَى مَعْرِضِ الْكِتَابِ، دَخَلْنَا الْمَعْرِضَ، كَانَ مُزْدَجَمًا رِجَالًا وَنِسَاءً وَفَتَيَانًا وَفَتَاتٍ، صَحِبَتْنَا الْمُعَلِّمَةُ إِلَى وَقَالَتْ: قَبْلَ أَنْ تَأْخُذُوا جَوْلَةً فِي الْمَعْرِضِ، إِلَى الْكِتَابِ، تَعَجَّبْتُ وَقُلْتُ: كِتَابٌ يَتَحَدَّثُ. !! بِدَأَ الْعَرِضَ، وَأَصْبَحَتْ ذَاهِلَةٌ ظَهَرَ أَمَامَنَا كِتَابٌ أَتَقَرَّبُ أَنْ يَقْرَأَ وَأَلْوَانٌ جَمِيلَةٌ، كُنْتُ أَتَأَمَّلُ مَنْظَرَهُ، ثُمَّ قَالَ أَشْكُرُكُمْ عَلَى هَذِهِ الزِّيَارَةِ الَّتِي خَصَصْتُمُونِي بِهَا، ثُمَّ أَكْمَلَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: رُبَّمَا فَضَّلَ بَعْضُ أَنْ يَقْضِيَ هَذَا الْوَقْتَ فِي مَكَانٍ لِلتَّرْفِيهِ، وَقَدْ بُوَدَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْضِيَ سَاعَةَ النَّهَارِ هَذِهِ فِي تَنَاوُلِ وَجِبَةٍ إِفْطَارٍ شَهِيَةٍ، ذَلِكَ: مَتْعَةُ التَّرْفِيهِ، وَكُلُّ مَا لَنْ إِنِّي أَتَقَلُّ بِكُمْ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ دُونَ أَنْ تُكَلِّفُوا أَنْفُسَكُمْ مَشَقَّةَ السَّفَرِ، وَأَقْدِمَ لَكُمْ أَلْوَانًا مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْخَبَرَاتِ، فَمَعِيَ لَا يَشْعُرُ إِنْسَانٌ بِضَجَرٍ أَوْ مَلَلٍ، وَصَدِيقٌ صَدُوقٌ فِي الرَّجَاءِ وَعِنْدَ الشَّدَائِدِ، لَا أَفْشِي سِرًّا، وَلَا أَكْتُمُ نَفْعًا. أَخَذَنِي حَدِيثُهُ السَّاجِرُ الَّذِي وَاصَلَهُ بِأَسْلُوبِهِ الْجَمِيلِ، فَلَقَدْ نَعِمَ الْمُتَحَدِّثُ، فَقَالَ: مِنْذُ نَحْوِ سَبْعَةِ آلَافِ سَنَةٍ وَلَدْتُ فِي أَرْضِ الرَّافِدِينَ، لَقَدْ كُنْتُ يَوْمَئِذٍ الْوَاحَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ